البحتري المؤمن

هل يطلب ان يكون البحتري متزمتاً؟ والدين مرجعه العاطفة القوية والتربية الصالحة على التقى اما شاعرنا فلم يوفق الى هذه السبل القويمة فعاطفته القوية صرفت الى غير الطرق الدينية وتربيته لم تعهد انها كانت في بيت علم وفضل وعصره الذي رافقه لم يتح له هذه الحياة التقوية فقد عهدناه شابا يسير على هواه ويؤثر الجهاد ولكن في ركاب الامير ولما حمل السيف قال.

ورأيتني فرأيت اعجب منظر رب القوافي في القنا المتقصد

ورأيناه يتهيب الخلافة والامامة كما يدعوها وقد قررنا ان مثل هذه الامامة ودفاعه عن علي لم يكن يدل على شيعة ولا مذهب انما هو لمحة شعرية وتعقبت ذكر الامام والامامة في شعره فلم اجد فرقا عنده بينها وبين ذكر الخليفة وهو يدعو عدو الشيعة الاكبر (المتوكل) بالامام.

هذه الحرمة المالى في نفس البدوي البحتري ذهب بهـــا مسلك الخليفة المتوكل الذي لم يكن يتحرج من ان يشرب علناً وقد لا يصوم وهو القيم على الدين كما يصفه ويصف خلفاءه من بعده ولكن هؤلاء القوامين لم يكونوا خير قدوة مع استثناء المهتدي وقد رأينا البحتري يصفه بالتقى ويفضله بدل هذا ان العاطفة اللاهية كان يلذ لها هـــذه المظاهر التقوية ولكن حب الحياة كان يطغى على تصرفه وقد تيقنت انه لم يكن لمظاهر الدين الاعتبار اللائق في نفسه كان يتفكه بانتقاد صوم

رمضان وفي اقدس ايامه واوفرها حرمة في ليلة القدر عند الاكثرين الليلة السابعة والعشرين والاغرب ان ذلك كان في السنين من عمره يقول للحسن بن وهب

يا اخا الحارث بن كعب بن عمرو　　اشهورا نصوم ام اياما
طال هذا الشهر المبارك حتى　　قد خشينا بان يكون لزاما
كم صحيح قد ادعى السقم فيه　　وعليل قد ادّعى البر صاما
قد مضت سبعة وعشر وعشر　　ما نزور اللذات الا لماما
قد عشقنا كما عشقت ومادمت　　م ودمنا والحب لو دمت دامـا
افطروا راشدين اني اعد　　م الفطر في هجر من احب اثاما
واري الدهر كله رمضانا　　ابدا او يكون فطري غراما

ويلاحظ ان هذا التهكم يرجع الى ان في شهر الصوم منصرفا عن اللهو الذي كان يدين به البحتري وهو لا يقصد المس بشعائر الدين ولكن لايحترم هذه الحرمات وليس له من تربيته مايعصم لسانه عن هذه القحات .

اباحية البحتري

ولا اريحيـــة الا ترى طروب المشيات نشوانهـــا
وليست مداماً اذا انت لم تواصل مع الشرب ادمانهـــا

الاباحية صفة تلازم البحتري كان يجترح المحارم وكان يجهر بذلك وكان امامه ابا نواس هذا شعره اصدق شاهد عليه والتاريخ لاينقض هذا القول فقد سمعنا المعتز يقول له (وكأني بك وقد اشتريت غلاما وجارية وفرسا وفرشا واتلفت المال) الغلام والجارية والفرش وقد اهمل ذكر الخمر وهي من الاوليات عنده .

ايها الآمري بترك التصابي رمت مني ماليس في امـــكاني
خل عني فما اليك رشادي من ضلال ولا عليك ضمـــاني
وندیم نبهته ودجى الليل م وضوء الصباح يبتلجان
قم نبادر بها الصباح فقد اقمر م ذاك الهلال من شعبان
بنت كرم يدنو بها مرهف م القد غرير الصبى خضيب البنان
ارجوانيه تشبه في الكاس م بتفاح خـــده الارجواني
بات احلى لدى من سنة النوم م واشهى من مفـــرحات الاماني

هذه الخمر وهذه المرأة هي كل ماتصبو اليه حياة البحـــتري قد الف هذه الاقوال وقد تكون هذه الصفات قد استهوته حتى اصبح يراها الكمال في صفة الجمال ففتانه فتنة وقد تكون غـــلامية تسقيه وقد وصفها بقوله :

يرتج من خلفها كثيب　　يحيا به خصرها الضعيف
واهتز في بردها قضيب　　ممتدل قده قضيف
وصيفة في الفساء رود　　كانها خفة وصيف

وامامه في الخمر والمرأة ابو نواس بلا منازع :

هب يسقي فكاد يصبغ ماجا　　م من حمرتي مدام وخد
وجنى الورد ثالث فسبيلي　　شم ورد طورا وتقبيل ورد

وقد يكون هذا وصف حقيقة وقد لايكون بل كانه نظر الى قول ابي نواس فجانس بينها وبين حمراء كالورد وانظر الى صفة المرأة البحترية .

هز منها شرخ الشباب فمالت　　فوق خصر كثير جول الوشاح
وارتنا خدا يراح له الورد　　م ويشتمه جنى التفاح
وشتيتا من يغض من لؤلؤ النظم　　م ويزرى على شتيت الاقاحي
فضاءت تحت الدجنة للشرب　　م وكادت تضيء للمصباح
واشارت على الغناء بالحا　　ظ مراض من التصابي صحاح
فطربنا لهن قبل المثاني　　وسكرنا بهن قبل الراح
قد تدير الجفون من عدم الا　　لباب ما لايدور بالاقداح

وهكذا كل هذا الغزل شعر لا اثر فيه للتعمل او لاخراج غير هذه الصور الساذجة التي لاتكد ذهنا ولا تدهش سامعا وهو يكثر من ذكر الورد والتفاح وحمرة الخمر .

اغادي ارجوان الراح صرفا　　على تفاح خد ارجواني
اذا مالت يدي بالكاس ردت　　بكف خضيب اطراف البنان

تأمل من خلال الشك فانظر بعينك ماشربت ومن سقاني
تجد شمس الضحي تدنو بشمس الى من الرحيق الخسرواني

وقد صرح كل التصريح :

هل العيش الاماء كرم مصفق يرقرقه بالكأس ماء غمام
وعود بنان حين ساعد شدوه على نغم الالحان ناي زمام

هذه صفات حياة نهمة رافهة ساعد عليها زمانه وتسامحه وانشغال اولياته عن اقامة الحدود

اما الغلمان وما كان لديه منهم وكيف كان يصفهم فلم يتعمد ماوضع أبونواس وابو تمام في هذا المعنى واراه كان يكثر من الاسماء والنعوت

خوته الرماح اغيد مجدو لا قصير الزنار وافي الازار
فوق ضعف الصغار ان وكل الامر م اليه ودون كيد الكبار
رشأ تخبر القراطق عنه عن كنار يضيء تحت الكنار
لك من ثغره وخديه ما م شئت من الاقحوان والجلنار
اعجمي الاعجالة لفظ عربي تفتح النوار
وكأن الذكاء يبعث منه في سواد الامور شعلة نار

يطلب هذا الغلام من ابي جعفر بن حميد وهو في اول امره مما يدل على ان مذهبه في الغلمان كان كطلب المال . هذه صفة غلام قيمته في ذكائه ونشاطه ولا باس ان كان جميلا انما المقصود ان يكون ذا قيمة اذا عرض للنخاس ولو رجعنا الى صفة الغلمان عنده لرأينا اكثرهم على هذه الصفة هم مال وتجارة واشياء اخر

اباؤه

يحار الباحث في البحتري والمنقب عن اخلاقه في هذه النتائج اذا قابلها بما هو مروي عنه . رجل فقير شريد يطلب الحياة حيثما وجدت يمدح كل من يصادفه ويصرح في مديحه بالطلب وقد يحرم ومع ذلك يثابر ثم هو يحب الحياة ويغترف من ملاذها وهو محروم منها ومع كل ذلك يبحث في اباته وشممه .

ان نفس الشاعر تضم المتناقضات او ان منطقها غريب يحتاج الى استنباط المقدمات كان الشاعر يعلم قدر شعره ويؤمن بهذا الحق الصراح وان هذا الشعر يجب ان يثاب وان ثوابه يجب ان يقوم بجودته وهو رب القريض فيجب ان تكون جائزته ربة الجوائز ولذلك يرى ان الثواب حق له يطالب به وانه لايقبل المال ممن لايمدحهم ولو كان اباه .

اتعبت شعري فاضحى منك في لعب　　فاذهب فما لي في جدواك من ارب
لااقبل الدهر نيلا لايقوم به　　شكري ولو كان مسديه الي ابي

واحيانا لم يكن يرضى عن هذا العطاء فيذم من مدح واحيانا كان يسامح وهو راض عن كل مايعمل وقد نقبت كثيرا لاجد اثرا للندم في كل شعره فلم احظ بطائل سوى بيت .

وقد زعموا ان الندامة توبة　　يصلى لها ان تقتنى ويصام

وظاهر ان هذا الزعم ليس من رأيه فهو مطمئن الى كل مايعمل

ان حقا وان ظلما بهمه ان يرضي نفسه وأن يظل شعره المثل الاعلى عنده

ارضيهم قولا ولا يرضونني فعلا وتلك قضية لم تقصد
فاذم منهم مايذم وربما سامحتهم فحمدت مالم يحمد

ورايه الاعلى انه مادام مكرما فهو مطمئن اما اذا احس بالضعة فليرحل شان البدوي من قديم الزمان :

ان الذي يثقل اهل لان يضرب عنه الذي خفا

وقد شرح هذا المذهب أتم شرح واوضحه :

انني ماحللت في الارض الا كنت في اهلها المجل المفدى
واذا القوم لم يراحوا لقربي كان لي عنهم مراح ومغدى

اما هذه النفس الابية التي لم ترق الا للشعر وعنده ابن عبد الشعر حر فظاهرة في كل هذه الاقوال ومعادة ومكررة ومن المعلوم ان من احب شيئا اكثر من ذكره :

وارفض دنيئات المطامع انها شين يعر وحقها ان ترفضا

والشاعر بالاجمال يقول ولا يفعل ولكن قول البحتري المعني بزكيه التاريخ فانه حق على رغم صاحب الاغاني برواية جحظة لما اهين بمجلس المتوكل عزم الا يعود وان يرجع الى منبج بغير اذن وهو يقول قد ضاع العلم وهلك الادب .

اما بيته الخالد فيجب ان يمثل به كل حر ابي :

امري بابتذال عرضي وعرضي رقمة مستعارة من اديمي

الجِـد والجـد

منع الدهر ان يسوي في القسمة م بين المحظـــوظ والمحروم
ايحتم مقـــدر ام بحق　　واجب ما ادعاه اهـل النجوم

يلاحظ ان البحتري في اول امره كان يرى ان الحيـاة بالجدود (الحظوظ) وكم خطر له هذا الطموح وهذا الغنى الذي كان محروما منه وقد ذكر ذلك كثيرا في شعره ولكنه فهم اخيرا ان الحظ لا يؤاتي من يهمل امره وينام ولكنه يحترم المجتهد العامل لذلك رأينـاه في كثير من مواقفه يعرض بالحظوظ وقد مر في المحاورة المشهورة انه كان يعتمد على ان للحظ المقام الاول في الحياة ولكن اخيرا رأى ما يناقض هذا الرأي او يتمه على الاقل وان للجد المقام الاول في اظهار الجد وله خطرات باهرات تؤيد هذا القـول اقتصر منها على ماجاء في اخر قصيدة الذئب الشهيرة .

اقد حكمت فينا الليالي بجورها　　وحكم بنات الدهر ليس له قصد
افي العدل ان يشقى الكريم بجورها　　ويأخذ منها عفوها القعدد الوغد

فهو يرى ان حكم الزمان جائر وليس من العدل ان تصرف الامور هذا التصريف ثم يقول حالا :

ذريني من ضرب القداح على السرى　　فعزمي لا يثنيه نحس ولا سعد
ساحمل نفسي عند كل ملمـــة　　على مثل حد السيف اخلصه الهند

ليعلم من هاب السرى خشيه الردى بان قضـــاء الله ليس له رد
فان عشت محمودا ثملي بغى الغنى ليكسب مالا او ينث له حمـــد
وان مت لم اظفر فليس على امرئ غدا طالبـا الا تقصيه والجهد

هذا قول لايحتاج الى تعليق هو يجد ويسعى ولكن قضـــاء الله ليس له رد وهذه الابيات خير ماقيل في معناها .

العتاب

(العتاب يجلو القلوب) من الامثال السائرة وقديما كان العتاب دلالة على اباء الشاعر وحسن ظنه بالصديق وقد يشتبه العتاب بالاعتذار متى كان المعتب في مقام لايجوز للشاعر ان يخاطبه مخاطبة الند للند ولكن هؤلاء الشعراء يشذون في تصرفهم وينسون كل موقف اذا تحكم فيهم شيطان الشعر ويغتفر حتى الخلفاء لهم مثل هذه المواقف الشاذة هم يعلمون انهم صادقون وانهم يعبرون عن اخلاق صافية لايرنقها ضغينة والا كتموا مافي النفوس وبادهوهم بالتملق وكان ما كان من الهجاء ذل الدهر وخيبة الحياة .

كان البحتري يكبر العتاب ويفتن في اظهاره وله فيه مايقرن بعتب النابغة ان لم يسر امامه اما رأيه في العتاب فصريح .

عتاب باطراف القوافي كأنه طعان باطراف القنا المتكسر
فاجلو به وجه الاخاء واجتلى حياء كصبغ الارجوان المعصفر

العتاب مؤلم ولكن غايته ان يجلو وجه الاخاء ويحمل هذا المحمل الذي كان يروق الممدوحين وكم كان يجد البحتري من التعزية في لفظ الاخاء وهي كثيرة في شعره ويظهر انها على قدمها في العربية لم تعم وتشهر الا بعد ابن المقفع واضرابه عندما خصوا كتبهم باستعمالها وللرغبة فيها اتخذها اهل العلم لهم اعوانا فقالوا (اخوان الصفاء).

واراني اكثر من شرح هذه النظريات والمعاني عند البحتري وهي مشهورة .

فعلام انكرت الصديق واقبلت تحوي ركاب الكاشحين تطلع
واقام يطمع في تهضم جانبي من لم يكن من قبل فيه يطمع
الا يكن ذنب فعد لك واسع لو كان لي ذنب لعفوك اوسع

ولئلا يظن ان البحتري كان يحتمل هؤلاء وبمائهم ولا ينال منهم ما يتمنى يصرح بمذهبه في العتاب وديدنه .

الارض اوسع من دار ألط بها والناس اوسع من خل اجاذبه
اعتب المرء فيما جاء واحدة ثم السلام عليه لا اعاتبه

هل كان يعمل بهذا القول ؟ . هل كان يستطيع ان يعمل بكل مايقول ؟ انه شاعر والشعراء يتبعهم الغاوون .

ثاقب رأيه

يقول القدماء هذا شاعر يضرب الامثال كزهير مثلا وسمعنا المعري يقول ابو تمام والمتنبي حكيمان اما الشاعر فهو البحتري ويعني ان البحتري لايهتم لهذه النظرات البعيدة في الحياة مع ان للبحتري نظرات ماضيات سارت مع امثال ابي تمام وكانت اسسا لاقوال المتنبي واعني ان هذه الاقوال تسير مسير الامثال وتعبر عن افكار الخاصة والعامة في كثير من مواقف الحياة وقد جمعت منها مايقرب من المائة اكتفي الان بذكر شيء — وليس من المختار انه كما اتفق حسب ماسن البحتري من شرعة الشعر والادب .

تناس ذنوب قومك ان حفظ م الذنوب اذا قدمن من الذنوب

وهي نظرة صائبة لو عمل بها رجال الاحزاب في هذه الايام لخدموا اوطانهم كل الخدمة .

واذا وقف المرء من لئيم يسأله قد يعيا به فيفسح له البحتري في مجال القول :

اتظن الغنى ثوابا لذى الهمة من وقفه بباب لئيم
ولوجه البخيل احسن في بعض الاحايين من قفا المحروم
او اذا رأى عنجهة من كبير صاح .

واذا ماالشريف لم يتواضع　　للاخلاء كان عين الوضيع
او يقرر بكل جرأة

ليس المصيبة في الثاوي قضى قدرا ان المصيبة في الباقي هفا جزعا

اما هذا العزم الذي يبديه في ان الانسان يستطيع ان يفهم كل شيء فهي نظرة سبقت اوانها عشرات الاجيال من منا يستطيع ان يصدق ان البحتري يقول منذ الف سنة ونيف .

والذي غم على الناس فلم يعلموا ماهو شيء لم يكن

اليس هذا هو الذي ينسب الى نابليون (لاشيء مستحيل) اوان يقف في موقف تعزية وحكمة واقرار بالواقع

فاذا رأيت الهجر ضربة لازب يوما رايت الصبر ضربة لازب

الى كثير من هذه النظرات الصائبات نكتفي بما ذكر .

وبامكاننا ان نفصل هذه الافكار ونسير بسيرته عندما جمع حماسته وبوبها الى ١٧٤ بابا ولكن فيما ذكرنا مايغني .

فخره

ولم ار مثلي ظل يمـــدح نفسه ويأخذ اجرا ان ذا عجب بهر

البحتري في جميع اطواره يفخر بقومه الطائيين اولا ثم اليمنيين ويغتنم كل سانحة ليكرر المعنى هذا وله قصيدة دالية رائعة خير مثال على هذا الفخر الجيد الناصع كنت اود ان اذكرها ولاشهرتها اقتصر على ذكر ابيات ابيات منها :

سائل الدهر مذعر قناه هل يعرف م منا الا الفعال الحميـــدا
قد لعمري رزناه كهلا وشيخا ورأيناه ناشئا ووليـــدا
وطوينا ايامه وليـــاليه م على المكرمات بيضا وسودا
لم نزل قط مذ ترعرع نكسو م ه ندى لينـــا وباسا شديدا
فهو من مجدنا يروح ويغـــدو في على لا تبيد حتى تبيـــدا

هذا هو الشعر البحتري يجاري عظمة سني الدهر منذ ترعرع الى ان اكتهل ثم شاخ وهم اي اليمنيون يكسونه الندى والباس وهي الطريقة البحترية الصرفة ويختمها ناظرا الى القدماء ومقلدا :

نحن ابناء يعرب اعرب الناس م لسانا وافضر النـــاس عودا
وكان الاله قال لنـا في الحرب م كونوا حجـــارة او حديدا

ويحسن ان يرجع اليها في الديوان فالاختيار يضيع كثيرا من محاسنها وهي جل المعاني المكررة المشورة في مديحه الذي يقول انه يمدح نفسه ويأخذ اجرا .

اما القسم الثاني من الفخر فهو فخره بشعره وهو يعرف قـــدر

الشعر ويعرف محله لذلك كان يظهر قيمته بكل مناسبة ولكنه على على الطريقة البشارية عندما كان كان يقوم شعر مروان بكمية الجائز فهو يقرنه بالجوائز :

لاتخف عيلتي وتلك القوافي بيت مال ولن اخاف ذهابه
كم عزيز حرمن من غير ذل ماله او نزعن عنه ثيابه

اما ان هذه القصائد كالنجوم تأتي بالسعود والنحوس فكانت موضوع نظر .

ظلمت اخا لو التمس انتصارا غزاك من القوافي في جنود
نجوم خلائق طلعت جميعا فجاءت بالنحوس وبالسعود

وهي خوالد لايستطيع الدهر ان يبلى جدتها .

قصائد من لايستعير من حليها تخلفه محروما من العيش محرما
خوالد في الاقوام يبعثن مثلا فلا تدرس الايام منهن معلما

واحق مايقال عن هذه القصائد وهذا الفخر بها ماوصفها به

ولم ار مثلي اتبع الجد اهله وجازى اخا النعمى بما هو صانع
قصائد مانتفك فيها غرائب تألق في الطافها ويدثع
مكرمة الانساب فيها وسائل الى غير ما يحبي بها وذرائع
تنال منال الليل في كل وجهة وتبقي كما تبقى النجوم الطوالع
اذا ذهبت شرقا وغربا فامعنت تبينت من تزكو لديه الصنائع

وقديما كان الفخر من ثروميات الشاعرية والبحتري مع ماله من هذه الناحية قصر عن طول الشعراء في تكراره وفي هذه الاعادة ما لايثبته بين اولئك الذين سار شعرهم واصبح مضرب المثل .

آخر شعره

غنى عبد الله بن العباس الربيعي المتوكل بشعر لم يعجبه فقال ياعبد الله اين غناؤك هذا في ايامي من غنائك في الايام الاولى فقال يا امير المؤمنين اني كنت اتغنى هذه الاصوات ولي شباب وطرب وعشق ولو رد على لغنيت مثل ذلك الغناء .

هذه حقيقة بديهة وان شذ عنها بعض الشعراء ولكن الشباب والطرب والعشق هي ينابيع الشاعرية الثرة وهذا الحكم يجري على البحتري كما يجري على غيره . هذا العمر الطويل وقد نيف على الثمانين وهو ينظم ، ولم نر من شعره الاخير في هذه الحقبة الا القليل وقد جمع شعره ولم يدون من هذا الشعر المتهدم ولكنا لانعدم ان نجد ضعفا وانهيارا في هذه الشاعرية القوية وقد شاخت وبحثت لاجد اخر قصيدة قالها واثبتها في الديوان فلم اوفق كل التوفيق انما رأيت له في اسماعيل بن بلبل قصيدة يظهر فيها اثر هذه الشيخوخة .

اردد ليت شعري ما دهاني لديك لو انتفعت بليت شعري
فان اضعف على استصلاح شأني فتلك السن شاهدة بعذري
وكنت اعد طول العمر غنما فعاد بضد ذلك طول عمري

ولا يستطيع وهو بهذه الحال الا ان يفخر بشعره وعنجهيته

ان حشد الرجال عليك دوني لما حشدوا عليك بمثل شعري
وان خدموك بالابدان اني لا بلغ خدمة منهم بفكري

اذا سيرتهن مسيرات كما اتضحت نجوم الليل تسري
يجبن الطول من شرق وغرب وعرض الارض من بر وبحر

وهذه نفثة يحسن ان نختم بها هذا العمر الطويل قالها فيما يدعو اليها

واخر العيش اخبار مكررة واقرب العيش من لهو اوائله
يجري الشباب اذا ما تم تكملة والشيء ينفد نقصانا تكامله
ويسقب المرء برءاً من صبابته تجرم العام يأتي ثم قابله

وقد تجرم عام واقبل اخر وتعاونت عليه الايام وتلك الحيـــاة (العريضة) وذلك الاستهتار حتى الزمته بيته في منبج يعيش بالذكريات وتحفزه الحياة ويستكين وتهدأ ثائرته ثم ينتفض انتفاضة وتطلع الشمس على جثة هامدة قد انطفأت حياتها بعد سكون ذلك القلب الكبير

انتهى